170262 ـ نبذة عن " أبي حيان التوحيدي " وكتابه " البصائر والذخائر "

السؤال

هل من نبذة عن شخصية " أبي حيان التوحيدي " وهل هو من الملحدين ؟ وما رأيكم بكتابه " الذخائر والبصائر " ؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

شخصية أبي حيَّان التوحيدي – توفي عام 414 هـ ـ شخصية جدليَّة ، وقد تضاربت الأقوال في اعتقاده ومنهجه ـ بل وحتى في لقبه " التوحيدي " هل هو نسبة لنوع تمر أو هو للتوحيد الذي عند المعتزلة وحقيقته : نفي صفات الله تعالى ـ فمن قائل فيه إنه زنديق ضال ملحد ، ومن قائل إنه كان صحيح العقيدة وليس عنده ما يوجب الوقيعة فيه .
ومن أبرز القادحين فيه : ابن الجوزي والذهبي رحمهما الله .
قال الإمام الذهبي – رحمه الله ـ : " أبو حيان التوحيدي ، الضال الملحد ، أبو حيَّان ، علي بن محمد بن العباس البغدادي الصوفي ، صاحب التصانيف الأدبية والفلسفية ، ويقال : كان من أعيان الشافعية .
قال ابن بابي في كتاب " الخريدة والفريدة " : كان أبو حيان هذا كذَّاباً ، قليل الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان ، تعرض لأمور جسام من القدح في الشريعة والقول بالتعطيل ، ولقد وقف سيدنا الوزير الصاحب كافي الكفاة على بعض ما كان يدغله ويخفيه من سوء الاعتقاد فطلبه ليقتله ، فهرب والتجأ إلى أعدائه ، ونفق عليهم تزخرفه وإفكه ، ثم عثروا منه على قبيح دخيلته وسوء عقيدته وما يبطنه من الإلحاد ويرومه في الإسلام من الفساد ، وما يلصقه بأعلام الصحابة من القبائح ، ويضيفه إلى السلف الصالح من الفضائح ، فطلبه الوزير المهلبي ، فاستتر منه ، ومات في الاستتار ، وأراح الله ، ولم يؤثر عنه إلا مثلبة أو مخزية ".
وقال أبو الفرج بن الجوزي : " زنادقة الإسلام ثلاثة : ابن الراوندي ، وأبو حيان التوحيدي ، وأبو العلاء المعري ، وأشدهم على الاسلام : أبو حيان ؛ لأنهما صرَّحا ، وهو مجمج ولم يصرح " .
قلت : وكان من تلامذة علي بن عيسى الرماني ، ورأيته يبالغ في تعظيم الرماني في كتابه الذي ألفه في تقريظ الجاحظ ، فانظر إلى المادح والممدوح ، وأجود الثلاثة الرماني ـ مع اعتزاله وتشيعه ـ .
وأبو حيان له مصنف كبير في تصوف الحكماء وزهاد الفلاسفة ، وكتاب سمَّاه " البصائر والذخائر " ، وكتاب " الصديق والصداقة " مجلد ، وكتاب " المقابسات " ، وكتاب " مثالب الوزيرين " ـ يعني : ابن العميد وابن عباد ـ ، وغير ذلك .
وهو الذي نسب نفسه إلى التوحيد ، كما سمى ابن تومرت أتباعه بالموحدين ، وكما يُسمِّي صوفية الفلاسفة نفوسهم بأهل الوحدة وبالاتحادية .

أنبأني أحمد بن أبي الخير عن محمد بن إسماعيل الطرسوسي عن ابن طاهر : سمعت أبا الفتح عبد الوهاب الشيرازي بالري يقول : سمعت أبا حيان التوحيدي يقول : أناس مضوا تحت التوهم ، وظنوا أن الحق معهم ، وكان الحق وراءهم .

قلت : أنت حامل لوائهم .

وقال أبو نصر السجزي الحافظ فيما يأثروه عنه جعفر الحكاك : سمعت أبا سعد الماليني يقول : قرأت الرسالة ـ يعني المنسوبة إلى أبي بكر وعمر مع أبي عبيدة إلى علي رضي الله عنهم ـ على أبي حيان ، فقال : هذه الرسالة عملتُها ردّاً على الرافضة ، وسببه : أنهم كانوا يحضرون مجلس بعض الوزراء وكانوا يُغلون في حال " علي " ، فعملتُ هذه الرسالة .

قلت : قد باء بالاختلاف على " علي " الصفوة ، وقد رأيتُها ، وسائرها كذِب بيِّنٌ " انتهى من " سير أعلام النبلاء " (17 / 119 – 123) باختصار .

ومن أبرز الذابين عنه والمادحين له : تاج الدين الدين السبكي ووالده تقي الدين ، وابن النجار رحمهم الله .

قال تاج الدين الدين السبكي – رحمه الله ـ : " قال ابن النجار : له المصنفات الحسنة كـ " البصائر " وغيرها .

قال : وكان فقيراً صابراً متديّناً ، قال : وكان صحيح العقيدة .

قلت – أي : السبكي ـ : الحامل للذهبي على الوقيعة في التوحيدي ـ مع ما يبطنه من بغض الصوفية ! ـ هذان الكلامان – أي : كلام ابن بابي وابن الجوزي ـ ولم يثبت عندي إلى الآن مِن حال أبي حيان ما يوجب الوقيعة فيه ، ووقفتُ على كثير من كلامه فلم أجد فيه إلا ما يدل على أنه كان قوي النفس مزدرياً بأهل عصره ، لا يوجب هذا القدر أن ينال منه هذا النيل ، وسئل الشيخ الإمام الوالد رحمه الله عنه فأجاب بقريب مما أقول " انتهى من " طبقات الشافعية الكبرى " (5 / 287 ، 288) باختصار .

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يثبت لأبي حيان اشتغاله بالفلسفة ولا يجزم له بالزندقة.

قال – رحمه الله ـ : " فإنَّ أبا حيان تغلب عليه الخطابة والفصاحة ، وهو مركب من فنون أدبية وفلسفية وكلامية وغير ذلك ، وإن كان قد شهد عليه بالزندقة غير واحد وقرنوه بابن الراوندي ، كما ذكر ذلك ابن عقيل وغيره " انتهى من " العقيدة الأصفهانية " (ص 172) .

وقال – رحمه الله – أيضاً ـ : " والغزالي في كلامه مادة فلسفية كبيرة بسبب كلام ابن سينا في " الشفا " وغيره ، " ورسائل إخوان الصفا " وكلام أبي حيان التوحيدي " انتهى من " مجموع الفتاوى " (6 / 54) .

ونحن نتوقف في الحكم عليه حتى نقف على ترجمة لباحث يتفرغ لقراءة كتبه ويحكم على جمله وعباراته بالعدل ، ولعلنا نحظى برسالة جامعية متخصصة من باحث من أهل السنَّة قريباً ، وبعدها لعلنا نرجّح قولاً على آخر .

وأما كتابه " البصائر والذخائر " فهو يحتوي على قطع أدبية مسموعة ومنقولة ، وقد أثنى عليه ابن النجار – كما سبق ذِكر كلامه ـ ، وفيه أشياء فائقة البلاغة ، حسنة المعنى جدا . ووقفنا فيه على نقدٍ شديد لأهل الكلام في دينهم وسلوكهم وتعبدهم ، وقد حققه جماعة من المختصين وطُبع عدة طبعات ، وقد استوفت الكلام عليه – تقريباً ـ الدكتورة وداد القاضي وذلك في دراسة خاصة بالكتاب جعلتها في آخره .

والله أعلم